

تفسير السعدي

@ 195 @ وكما أن الهداية حصلت لكم شيئا فشيئا ، فكذلك غيركم . فنظر الكامل لحاله الأولى الناقصة ، ومعاملته لمن كان على مثلها ، بمقتضى ما يعرف من حاله الأولى ، ودعاؤه له بالحكمة والموعظة الحسنة من أكبر الأسباب لنفعه وارتفاعه . ولهذا أعاد الأمر بالتبين فقال : ! 2 2 ! . فإذا كان من خرج للجهاد في سبيل الله ، ومجاهدة أعداء الله ، واستعد بأنواع الاستعداد للإيقاع بهم ، مأمورا بالتبين لمن ألقى إليه السلام ، وكانت القرينة قوية ، في أنه إنما سلم تعودا من القتل ، وخوفا على نفسه فإن ذلك يدل على الأمر بالتبين والتثبت ، في كل الأحوال التي يقع فيها نوع اشتباه ، فيتثبت فيها العبد ، حتى يتضح له الأمر ، ويتبين الرشد والصواب . ! 2 2 ! فيجازي كلا ، ما عمله ونواه ، بحسب ما علمه من أحوال عباده ونياتهم . ^ (لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة ولا وعد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما * درجات منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفورا رحيما) ^ أي : لا يستوي من جاهد من المؤمنين ، بنفسه وماله ، ومن لم يخرج للجهاد ، ولم يقاتل أعداء الله . ففيه الحث على الخروج للجهاد ، والترغيب في ذلك ، والترهيب من التكاسل ، والقعود عنه ، من غير عذر . وأما أهل الضرر ، كالمريض ، والأعمى ، والأعرج ، والذي لا يجد ما يتجهز به ، فإنهم ليسوا بمنزلة القاعدين ، من غير عذر . فمن كان من أولي الضرر ، راضيا بعوده ، لا ينوي الخروج في سبيل الله ، لولا وجود المانع ، ولا يحدث نفسه بذلك ، فإنه بمنزلة القاعد لغير عذر . ومن كان عازما على الخروج في سبيل الله ، لولا وجود المانع ، يتمنى ذلك ، ويحدث به نفسه ، فإنه بمنزلة من خرج للجهاد . لأن النية الجازمة ، إذا اقترن بها مقدورها ، من القول ، أو الفعل ينزل صاحبها منزلة الفاعل . ثم صرح تعالى ، بتفضيل المجاهدين على القاعدين ، بالدرجة أي : الرفع ، وهذا تفضيل على وجه الإجمال . ثم صرح بذلك على وجه التفصيل ، ووعدهم بالمغفرة الصادرة من ربهم والرحمة التي تشتمل على حصول كل خير ، واندفاع كل شر . والدرجات التي فصلها النبي صلى الله عليه وسلم بالحديث الثابت عنه في الصحيحين ، أن في الجنة مائة درجة ، ما بين كل درجتين ، كما بين السماء والأرض ، أعدها الله للمجاهدين في سبيله . وهذا الثواب ، الذي رتبته الله على الجهاد ، نظير الذي في سورة الصف في قوله : ! 2 2 ! إلى آخر السورة . وتأمل حسن هذا الانتقال ، من حالة إلى أعلى منها . فإنه نفى التسوية أولا ، بين المجاهد وغيره . ثم صرح بتفضيل المجاهد على القاعد بدرجة . ثم انتقل إلى تفضيله بالمغفرة ،

والرحمة والدرجات . وهذا الانتقال من حالة إلى أعلى منها عند التفضيل والمدح ، أو النزول من حالة إلى ما دونها ، عند القدح والذم أحسن لفظا ، وأوقع في النفس . وكذلك إذا فضل تعالى ، شيئا على شيء ، وكل منهما له فضل ، احتزر بذكر الفضل الجامع للأميرين ، لئلا يتوهم أحد ، ذم المفضل عليه كما قال هنا : ! 2 2 ! . وكما قال تعالى في الآيات المذكورة في الصف في قوله : ! 2 2 ! . وكما في قوله تعالى : ! 2 2 ! أي : ممن لم يكن كذلك . ثم قال : ! 2 2 ! . وكما قال تعالى : ! 2 2 ! . فينبغي لمن يبحث في التفضيل بين الأشخاص ، والطوائف ، والأعمال ، أن يفتن لهذه النكتة . وكذلك لو تكلم في ذم الأشخاص والمقالات ، ذكر ما تجتمع فيه ، عند تفضيل بعضها على بعض ، لئلا يتوهم أن المفضل ، قد حصل له الكمال . كما إذا قيل : النصارى خير من المجوس ، فليقل مع ذلك وكل منهما كافر . والقتل أشنع من الزنا ، وكل منهما معصية كبيرة ، حرما ١١ ورسوله وزجر عنها . ولما وعد المجاهدين بالمغفرة والرحمة الصادرين عن اسميه الكريمين ! 2 2 ! ختم هذه الآية بهما فقال : ! 2 2 ! . ^ (إن الذين توفاهم الملائكة طالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض ١٢ واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا * إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا * فأولئك عسى ١٣ أن يعفو عنهم وكان ١٤ عفوا غفورا) ^ هذا الوعيد الشديد ، لمن ترك الهجرة ، مع قدرته عليها ، حتى مات . فإن الملائكة الذين يقبضون روحه ، يوبخونه بهذا التوبيخ العظيم ، ويقولون لهم : ! 2 2 ! أي : على أي حال كنتم ؟ وبأي شيء تميزتم عن المشركين ؟ بل كثرتم سوادهم ، وربما ظاهرتموهم على المؤمنين ، وفاتكم الخير الكثير ، والجهاد مع رسوله ، والكون مع المسلمين ومعاونتهم على أعدائهم . ! 2 2 ! أي : ضعفاء مهضومين مظلومين ، ليس لنا قدرة على الهجرة . وهم غير صادقين في ذلك ، لأن ١٥ وبخهم ،